الجمعيات والندوات الثقافية قديما

بقلم الأستاذ : الغزالي حرب

ما المراد بالجمعيات والندوات الثقافية ؟

جاء عن كلمة « الجمعية » في « المعجم الوسيط » — وهو من مطبوعات المجمع اللغوي بمصر — ما يأتي : الجمعية طائفة تتألف من اعضاء لغرض خاص ، وفكرة مشتركة ، ومنها « الجمعية الخيرية الاسلامية » والجمعية التشريعية « والجمعية التعاونية » وكلمة « الجمعية » من الكلمات المحدثة ، أي الكلمات التي استعملها المحدثون في العصر الحديث ، وشاعت في لغة الحياة ... مثل كلمة « البدال » بمعنى « البقال » عند العامة وكلمة « برج الحمام » بمعنى بناء خاص يأوي اليه الحمام ، وكلمة « براد الشاي » وكلمة « مضيفة الطائرة » ... وكلمة « الجمعية » .

وجاء فيه أيضا عن كلمة «ندوة» ما يأتي :

ندا القوم (برفع القوم) ندوًا : اجتمعوا في النادي وندا القوم (بنصب القوم) : جمعهم في النادي .. والندوة : اسم المرة من الفعل «ندا» ، والنادي : الجماعة يلتقون في ناد أو نحوه للبحث والمشاورة في أمر معين ... و «دار الندوة» كل دار يرجع اليها ، ويجتمع فيها للبحث والمشاورة ، وقد كانت لقريش في الجاهلية «دار الندوة» في مكة ، ويقول المؤرخون : ان قُصي بن كلاب ، هو الذي بناها ، ثم انتقلت إلى ولده ، واخيرا اشتراها معاوية بن أبي سفيان ، الذي جعلها دار للامارة .

وجاء فيه كذلك عن كلمة «ثقافة» ما يأتي : — «ثقف» (بكسر القاف) ثقفا : صار حاذقا فطنا فهو ثقف ، «وثقف العلم والصناعة» : حذقها ، وثقف الشيء (بتشديد القاف) أَقَامَ المعوج منه وسوَّاه ، وثقف الانسان (بتشديد القاف أيضا) : أدبه وهذبه وعلمه ، والثقاف : آلة من خشب أو حديد تثقف بها الرماح لتستوي وتعتدل ، وجمعها : ثقف (بضم الثاء والقاف) على وزان كتب جمعا لكتاب . أو جمعها «أثقفة» على وزان «اغطبة» جمعا لغطاء .

و «الثقافة» في أصلها اللغوي : الملاعبة بالسيف ، ويراد بها في العصر الحديث : العلوم والمعارف والفنون ، التي يطلب الحذق والمهارة فيها ... وكلمة الثقافة بهذا المعنى من الكلمات المحدثة المشار اليها آنفا ...

وقد تطورت كلمة «التثقيف» من تثقيف وتقويم المادَّةِ بآلة الثقاف ، إلى تثقيف العقل ، وتهذيب الذوق والخلق ، بما تيسر من ألوان العلوم والمعارف والآداب والفنون ...

ومن الشخص المثقف ؟

من الطريف أن المجيبين عن هذا السؤال من الباحثين المحدثين قد اختلفت اجاباتهم عن هذا السؤال ، باختلاف ثقافاتهم أو اتجاهاتهم وميولهم الثقافية ، واتخذ كل من نفسه مثلا أعلى للشخص المثقف ، كما اتخذ من ثقافته معيارا مشرفا للثقافة ، التي لا يرضى بها بدلا ، ومهما يكن من اختلاف تعريفا تهم للثقافة والمثقف ، فمن الممكن ان نذكر هنا أهم العناصر ، التي لا غنى عنها للثقافة الحرة ، والمثقف الحر ، وهي :

١ — الاخذ من كل شيء بطرف ، ومعرفة شيء عن كل شيء .
٢ — والجمع بين الأدبين : أدب الدرس وأدب النفس .
٣ — ومتابعة القراءة الحرة لما تيسرت قراءته من القديم أو الحديث .
٤ — والترفع عن السفساف والتوافه .
٥ — والثقة بالنفس دون ما غرور أو تغرير .
٦ — وسلامة المنطق ، وسعة الافق وحسن التصرف .
٧ — والانتفاع بالخبرات والتجارب — كما ينبغي — وتلك أهم عناصر الثقافة الحرة الشاملة التي هي — ولاشك أوسع وأكمل .

وأعمق من الثقافة المقيدة بقيد معين ، أو الملونة بلون خاص مثل الثقافة المدرسية ، أو الثقافة الدينية ، أو الثقافة الفلسفية أو الثقافة العلمية ، أو ما إلى ذلك من الالوان الثقافية ، التي لا نريدها هنا قدر ما نريد .

الثقافة الحرة الشاملة المنوعة ، التي عناها جورج ديهاميل مثلا بعبارته المأثورة(١) :

« الثقافة كالايمان الذي لا يكفي أن نطلبه لنناله ، فهي نتيجة لمجموعة من الملابسات التي لم يكشف لنا العلم بعد تكوينها الحقيقي ومع ذلك ، فنحن نعرف على الاقل بعض عناصرها المكونة » وغني عن البيان أن تلك العناصر السبعة ، التي مرت بنا ، لا تكفي في تكوين الشخصية الثقافية الحرة ، الا على أساس الشعور الدائم بمسيس الحاجة إلى المزيد بعد المزيد من العلوم والمعارف والآداب والفنون مصداقا لقول القرآن الكريم : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » « وقل رب زدني علما » ... وعن هذا الشعور عبر المرحوم الاستاذ أحمد حسن الزيات بعبارته الرشيقة البليغة : « الشعور بالنقص مبدأ الكمال ، والنفور من العجز سبيل القدرة ، والركون إلى الامل الحافز دليل الفوز » كما عبر عنه أحد شعرائنا المعاصرين بأبياته التصويرية المتسائلة :

هل رأيت الراكض المجنون يعدو خلف ظله
جاهدا يسبقهُ الظل ويغريه بنوله
هو منه خطوة لكنها كالكون كله
هكذا الانسان في الدنيا ضليلا خلف عقله
كلما ازداد علوما .. زاد ايقانا بجهله

وهذا الشعور الدائم بالحاجة إلى المزيد من العلم والمعرفة والأدب والفن ، توجيه الحياة وندواتها ، ومجتمعاتها وتجاربها إلى المثقف الحر الاصيل ، أكثر مما توجيه المدرسة أو الجامعة أو « الشهادة الرسمية » ، كائنة ما كانت ، ورحم الله أحمد شوقي الشاعر المصري الكبير :

وكم منجب في تلقي الدروس   تلقي الحياة فلم ينجب

ولماذا ؟ لان النجابة الثقافية المنشودة ، انما هي النجابة التي يفيدها المثقف من الحياة وخبراتها التي لا نهاية ولا حدود لها ، وأن لم يتح لهذا المثقف أن يظفر باحدى الشهادات الدراسية ، التي يقول فيها المثل الفرنسي الساحر اللاذع : « الشهادة الدراسية أحيانا جلد حمار ...

ومن المثل العليا للنجابة الثقافية الشاملة قديما في أدبنا العربي :

أ — عبد الحميد الكاتب ، المقتول في آخر عهد الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية عام (١٣٢ هـ) وبفضل ثقافته المنوعة الرائدة كان أول من عرف بلقب « الكاتب » ، وكان له أسلوبه الثقافي الممثل للطور الاول من أطوار الاسلوب العربي في ذلك المجتمع الحضاري الجديد ، الذي بدأ فيه اختلاط العرب بالفرس .

ب — ثم عبدالله بن المقفع (١٠٦ — ١٤٢ هـ) الذي كان له أسلوبه الثقافي الممثل للطور الثاني ، استجابة لا تساع الخلافة وتنوع الثقافة ، وتفتح المخالطة بين العرب والفرس ...

جـ — ثم أبو عثمان الجاحظ (١٥٩ — ٢٥٥ هـ) الذي مثل بأسلوبه الثقافي الجامع المتفنن ، الطور الثالث للاسلوب العربي ، وهو طور الاستجابة لمقتضيات نقل العلوم الأجنبية ، وازدهار المدنية العباسية ، وانتشار المقالات الاسلامية ....

د — ثم أبو الفضل محمد بن الحسين المشهور بابن العميد (٣٦٠ هـ) وبأسلوبه الثقافي الأنيق ، مثل الطور الحضاري الرابع مستجيبا لدواعي الترف والنعمة ، فتطور تطورا طرديا صاعدا من الضيق إلى السعة ، ومن الجوالة إلى الرقة ومن الترسل المتوازن إلى الصنعة المطبوعة ...

هـ — ثم على بن محمد أبو حيان التوحيدي (٣١٠ هـ ٤١٤ هـ) ، وبفضل ثقافته العامة العريضة المنوعة ، عرف بلقب «الجاحظ الثاني» ولقب «فيلسوف الادباء وأديب الفلاسفة» .

وبفضل الثقافة كان الخليفة المأمون العباسي مثلا ، على الرغم من نهوضه بأعباء الخلافة والسلطان ، رجلا مهيبا بعلمه وثقافته ، قبل أن — يكون مهيبا بحكمه وخلافته ، حتى قال له يحي بن أكثم في أعقاب ندوة علمية ثقافية شاملة :

يا أمير المؤمنين ، ان خضنا في الطب كنت «البنوس» في معرفته أو في النجوم كنت «هرمس» في حسابه ، أو في الفقه كنت «علي بن أبي طالب» في علمه ...

فسر المأمون بهذه الشهادة الثقافية المشرفة من رجل له ثقله في الميزان الثقافي في ذلك العصر ، وقال له : يا أبا محمد : أن — الانسان انما فضل على غيره من الهوام بفضله وعقله وتمييزه ، ولولا ذلك لم يكن هناك لحم أطيب من لحم ، ولا دم أطيب من دم .....

وإلى جانب «دار الندوة» كانت لهم جمعياتهم وندواتهم في أسواقهم المشهورة : عكاظ ومجنة وذي المجاز ، وفي سوق عكاظ ، ضربوا قبة للاعشي وغيره من الشعراء ، لانشاد الشعر أو الفصل والمفاضلة بين الشعراء ، ومن هنا وصف الأديب السعودي المعاصر الاستاذ عبدالله ابن خميس هذه السوق[1] ، بانها كانت «اعظم معرض في جزيرة العرب للتجارة والصناعة والفن ، وأعظم مؤتمر للرأى والسياسة والاجتماع ، وأعظم منتدي للشعر والخطابة والبلاغة» .

وفي عصر صدر الاسلام كانت «سقيفة بني ساعدة» منتدي للاجتماعات التي عرفت — على خطورتها أحيانا — باسم «اجتماعات السقيفة» .

وشهد العصر الأموي ندوات أدبية ثقافية ، تجمع أحيانا بين الرجال وبعض السيدات البرزات — أي اللاتي عُرِفْن بالبروز لمواجهة الرجال — في جرأة وعفة من طراز :

أ — الندوة التي جمعت بين السيدة عائشة بنت طلحة ، حفيدة أبي بكر الصديق وزوج

مصعب بن الزبير ، وبين هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين وغيره من شيوخ بني أمية .

ب — والندوة التي جمعت بين السيدة سكينة(١) بنت الحسين صاحبة «الطرة السكينية» وبين بعض شعراء عصرها ، وقد اشتهرت هذه السيدة الأديبة الناقدة ، بذوقها الادبي السليم وشخصيتها القوية ، التي جعلت المستشرق «بيرن» يصفها بأنها «كانت سيدة عصرها ، اذ كانت موفورة الجمال ، كاملة الخصال ، ولا غرو فقد رغبت في العلم والمتعلمين ، وجالست العلماء والأتقياء وشاركتهم في كثير من العلوم والفنون» وقد حدثنا أستاذنا المرحوم أحمد(٢) أمين « : أن أبا القاسم على بن محمد التنوخي كان من أعيان أهل العلم والادب في العصر العباسي الثاني ولما مات بالبصرة عام ٣٤٢ هـ . خلفة ابنه أبو علي المحسن التنوخي ، الذي كان أديبا شاعرا أخباريا ، وهو صاحب كتاب «نشوار المحاضرة» الذي أراد أن يحقق فكرة لطيفة» وهي أن يدون تاريخ الاحداث التي تدور في المجالس ، وعلى ألسنة الرواة ، ولم تدون في الكتب» ، وممن عنوا بذلك أيضا في العصر القديم : أبو علي الفارسي الامام النحوي المشهور والمتوفي عام ٣٧٧ هـ فقد حدثنا عنه احمد أمين في الجزء الاول من «ظهر الاسلام» ص ٢٤٣ .ـقائلا عنه : انه «كان يدون في كتاب ما يجري له من مناظرات في كل بلد ، ككتاب المسائل «الحلبيات» و «البغداديات» و «الشيرازيات» …… الخ .

كما حدثنا الأستاذ المحقق المعاصر عبد السلام هارون في مقدمة تحقيقه كتاب «مجالس ثعلب» المتوفي في عام ٢٩١ هـ — أن هذا الكتاب «تسجيل كامل لما كان يحدث في مجالس أبي العباسي أحمد بن يحي ثعلب ....

ومن ندوات ما بعد العصر الاموي حتى نهاية العصر العباسي تقريبا الندوات الاتية :

١ — الندوة التي كانت تعقدها السيدة شهدة(١) بنت أبي نصر أحمد بن فرج بن عمر المشهورة باسم «شهدة الدنيورية» نسبة إلى «الدينور» وهي بلدة كانت من بلاد الجبل ، واليها ينسب بعض العلماء والأدباء ... وكانت «شهدة الدنيورية تعقد ندوات في جامع بغداد ، وهي ندوة أدبية تاريخية كانت لها شهرتها بين أبناء القرن الخامس الهجري .

٢ — والندوة بل الندوات التي شارك فيها أبو حيان التوحيدي المتوفي عام ٤١٤ هـ عن أكثر من مائة عام ، قضاها في خدمة العلم والادب والثقافة ، حتى استحق لقب «الجاحظ الثاني» بل «الجاحظ الأعظم» وبفضل ثقافته الوسيعة المنوعة وعلى الرغم من شظف عيشة وسوء حاله ، وضيق ذات يده ، شارك في ندوات لابن العميد والصاحب بن عباد ، والمهلبي ، وابن سعدان ، والمدلجي كما شارك في ندوات أستاذه الفيلسوف أبي سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، وأستاذه الآخر أبي الفضل بن العارض .. ومن الفلاسفة والادباء الذين كانوا يشاركونه في هذه الندوات : أبو الوفاء المهندس ، وزيد ابن رفاعة ، وابن زرعة الفيلسوف النسراني ، ومسكوية أو ابن سكوية مؤلف «تهذيب الأخلاق» و «تجارب الأمم» وصاحب الأجوبة المعروفة باسم

« الشوامل » عن أسئلة أبي حيان المعروفة باسم « الهوامل » **وقد سجل أبو حيان** ما تيسر من هذه الندوات والمجالس في مؤلفاته ولا سيما « الامتاع (١) والمؤانسة » و « المقايسات » و « الهوامل والشوامل » وهذه الكتب كلها مطبوعة ومحققة ..... ومن المؤسف أن من الكتب المفقودة لابي حيان — حتى كتابة هذه السطور — كتابا يسمى « المحاضرات والمناظرات » — كما قال ياقوت ومنه اقتطف ابن العربي كثيرا في كتابه « المسامرات والمحاضرات » كما اقتطف منه أيضا الغزولي في كتابه « مطالع البدور » ، ولم يفت **القفطي** (٢) ان ينقل لنا بعض ما دار بين أبي حيان وغيره في ندوة أبي الفضل بن العارض .

٣ — والندوة التي كانت عائشة بنت غالب تعقدها في أشبيلية وغيرها في الاندلس في النصف الاول من القرن الخامس الهجري وكان من أعظم شهودها : أبو الوليد ابن زيدون — الذي كان يتردد على هذه الندوة في بداية أمره ، ثم انتقل إلى ندوة .... حبيبته ولادة بنت المستكفي ومن الممكن ان نلتمس ندوات اخرى حقيقية أو خيالية في كتاب « البُخلاء » للجاحظ ، وفي مقامات بديع الزمان الهمزاني ثم في مقامات الحريري ، لان المقامات — كما قال الشريشي هي المجالس « واحدتها : مقامة ، والمقامة الحديث يجتمع له ، لا سماعه ، ويسمى مقامة مجالسا لأن المستمعين للمتحدث ما بين قائم وجالس ولان المتحدث كان يقوم تارة ويجلس تارة اخرى » .. واحسب أن في هذا القدر من الحديث عن الجمعيات والندوات الثقافية العربية قديما ما يدل — **اول ما يدل — على أننا نحن ابناء العروبة والاسلام أمة لها ماضيها المجيد ، وتراثها الحضاري ، وتاريخها العريق فمتى يرتفع حاضرها إلى مستوى ماضيها ؟**

(١) انظر المجلد العشرين من مجلة « الرسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات : ٥٦٣ .

(١) في كتابه « المجازيين اليمامة والحجاز » ط ١٩٧١ ص ٢٣٩ ، ٢٤٣ .

(١) انظر « الأغاني » : ٦ : ١٥٠ ، وج ١٠ : ٥٧ ، وج ١٤ : ١٥٩ ، ١٦٧ والمثل الكامل للمرحوم جاد المولى بك : ١٩٤ .
(٢) انظر « ظهر الإسلام » ط ٣ ج ١ : ٢٤٠ ، ٢٤١ .

(١) انظر « وفيات الأعيان » لابن خلكان ج ٢ : ١٧٢ وما بعدها .

(١) انظر « الإمتاع والمؤانسة » ج ١ ، ج ٦ ص ٢٣ ، ١١٥ ، ١١٧ وانظر « المقابسات » ص ٢٥٩ ولا سيما المقابسة ٦٤ ص ٣٣ وما بعدها .
(٢) انظر « اخبار الحكماء » للقفطي ص ١٨٦ وما بعدها .